ربانيون بين الزنزانة والقصر

مهندس

الصافي جعفر الصافي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **ربانيون بين الزنزانة والقصر**

المؤلف : م. الصافي جعفر الصافي

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى 2012



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أخي القاري :

هذه طبعة ثانية من كتاب (ربانيون بين الزنزانة والقصر) وهو سياحة في دروب (سورة يوسف) من مسار تربوي .. ثم محاولة لإسقاط السياق التاريخي للنص القرآني على واقعنا المعاصر ..

وتزداد قناعتي ما بين الطبعة الأولي والثانية أنَّ هذا الموضــوع هو حي دائم .. ذلك لأنه يرســم مساراً ومنهجاً لأهل القبلة والدعاة وللحكام .. كيف يكونون ربانيين وهم يمارسون مسئولياتهم .

لقد كانت هذه الخواطر نوعاً من الإضـــاءة الداخلية .. وباباً من أبواب أدب المكاشــفة لعالمنا الإسلامي عامة .. ولأهل المشروع الإسلامي في السودان خاصة ..

والقرآن علمنا أدب المكا شفة وهو يعالج هنَّات المجتمع المسلم – مجتمع الصحابة – في أكثر من موقع ، رجاء تسديد المسار .. وهو التواصي الذي حضَّ عليه القرآن (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

ولقد سُـقت هذه الخواطر بأسـلوب تميز بالرفق والأناة ، مما جعلني المس أثرها الفعَّال في كل الذين تلقفوا هذه الرسالة من الشباب في إصدارتها الأولي ..

ولقد عنَّتْ لي بعض الإضاءات خاصة بعد زوال المحنة عن يوسف والتمكين له .. شدَّني مشهد الحفاوة به وهو علي دست الحكم ، وإخوانه ساجدون له .. وهم ذات الإخوة الذين تآمروا عليه .. لطالما انبهرت بردود أفعاله الهادئة التي تجاوز بها أخطائهم معه ومؤامراتهم ضده .. فأضفت بعض سـطور لإضـاءة أكثر لهذا المعني الذي نحتاجه في حياتنا ونحن مقبلون علي مرحلة ما بعد السـلام والتي تتوجب أن يتوحد أهل السودان ..

وهذه الأسمار والتأملات في هذه الكراسة وبهذا الحجم من المعاني هي خطاب : -

أولاً : إلي الإنسـانية جمعاء .. وهي تعيش في ظل ظاهرة فرعونية جديدة تريد أن تمسـك بتلابيب البشرية ، وأحادية بغيضة تهدد حرية الإنسان ، ولأن الإسلام دين عالمي يعني بقضايا البشر ، وهو يمثل مشروع الخلاص الأخير لهم .

ثانياً : إلي الدولة الكبرى (الولايات المتحدة الأمريكية) ، والي السادة الأصوليين الجدد علي وجه التحديد الذين يحكمونها الآن في حلف مع الصهيونية يلبسونه ثوب القداسة .

ثالثاً : إلي الكيان الدولي الذي يحاول أن يفرض رؤاه في أحاديّة بغيضة .

ورابعاً : إلي أهل السودان .. وهم مقبلون بعد مرحلة السلام علي تغييرات سياسية واقتصادية وحراك اجتماعي جديد ..

ثم هو خطاب من بعد ذلك كله وقبله إلي أهل المشروع الإسلامي في السودان .. وقد قضوا سنوات من التمكين ، تعر ضوا فيها لكثير من الإبتلاءات والمحن .. أ صابوا في كثير مما ذهبوا إليه ، وجانبهم الصواب في بعض من ممارساتهم .. والمشوار لا يزال طويلاً أمامهم ، تحفه أشواك وأخطار .

إلي اؤلئك وهؤلاء أسوق هذا النموذج (سورة يوسف).. قصة ذلك الفتي العبراني القادم من أعماق البادية إلي أكبر حواضر العالم (مصر القديمة) ،

و شاء الله له أن يرتقي سُدَّة الحكم في بلاط الملك .. ويكون وزيراً ومقرباً من البلاط ، وجزءاً من دائرة إتخاذ القرار .. وتكون وزارته خيراً للمصـــريين إقتصـــادياً وســـياســـياً وإجتماعياً كما ورد في المصـــادر التاريخية . . ثم يكون هو في خاصـــة نفســـه نموذجاً للربانيين الذين يجمعون بين تجويد الأداء وتجويد العبودية لله تعالي .. عبودية تجلَّت أيام المحنة صبراً واستعلاءً علي الابتلاء .. وعبودية لله تجلَّت في أيام الوزارة والحكم ، فأصـــبح بذلك نموذجاً للحكام العارفين بربهم .. أرباب الأدب معه ..

وبذلك يكون خطاباً يعرض نموذجاً من (أدب المكاشفة) والتواصي بالحق لأهل القبلة كافة ..

وأدب المكاشفة هو فن إنفرد به القرآن وهو يعالج هنَّات المجتمع المسلم ويتابع سلبياته حتى في مجتمع الصحابة .. والمكاشفة هي صمام الأمان لديمومة أي منهج ، لان الممارسة البشرية كثيراً ما تتعرض للوهن ولسوء الفهم .. وكنموذج لذلك (غزوة بدر الكبرى) .

يســتعرض القرآن جزءاً منها في أوائل ســورة الأنفال ، فيعرضــها ويعرض معها نوعاً من أدب المكاشــفة مع هؤلاء البدريين وهم يمثلون ذروة أهل الأيمان وأهل الإســلام .. يقول الله تعالي : (كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ [5] يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَــاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ [6] وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ [7]

فانظر إلي إشارات المكاشفة في قوله : -

- يجادلونك في الحق بعد ما تبين
- وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ..

ومع من يمارس القرآن هذه المكاشــفة .. ؟ ! مع ســادتنا البدريين ، الذين هم طليعة أهل القبلة يومئذ وعلي مر الأزمان .

وهذه المكاشــفة جعلتهم يحزمون أمرهم ، ويرتقون مراقي أهل العزائم ، حتى قال المتحدث عنهم (سعد بن معاذ) : (إمضِ بنا حيث شئت .. سالم من شئت ، وحارب من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ...) إلي آخر هذه الكلمات الـ ساخنة التي تنم عن إيمان را سخ عميق ، جعلت سيد الأولين والآخرين يقول : (لعل الله قد اطلع علي أهل بدر يوم بدر فقال افعلوا ما شــئتم قد غفرت لكم) ..

كل ذلك كان من اثر التربية والرعاية والمراقبة والمكاشفة .. فالتواصي بالحق والصبر هو صمام الأمان لمسيرة أهل القبلة ، وزحفهم في زحام الحياة وفي مرافئ الأيمان ..

ولعل ســورة (العصــر) من كتاب الله ترســم خارطة لطريق التواصــي .. والتواصــي هو إســداء النصــيحة والتوجيه .. ولكن جرس الكلمة (تواصــي) ومعناها ينم عن أنها نصــيحة في رفق وتوجيه متبادل ، فهو حركة اجتماعية من الرئيس للمرؤوس والعكس .. ومن الأفراد للقائد وبالعكس ..

(تواصوا) تعني حراكاً اجتماعياً .. ولكنه حراك أنيق ، هادئ هدوء الكلمة (تواصي) ..

وسورة العصر تنص (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .. فالقرآن يقسم بالعصر – الذي هو الوقت – أن الإنسان جميعه خاسر إلا

1. **الذين آمنوا :** عمروا دواخلهم بالأيمان بالله ، وتغلغل ذلك في قلوبهم فأنارها وشرح صدورهم لتلقي نفحات الأيمان .

2. **وعملوا الصالحات :** بعد أن انقدح الأيمان في الصدور وتغلغل ، انداح أثره لإعمار الحياة كلها فأصبحت الحياة مسرحاً لمشاهد إيمانية فذه .

3. **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر :** كان لا بد لحركة الأيمان وحركة العمل الصالح من رقيب يراقب مسيرتها ويسدد خطاها ويحثها علي السير رغم الأشواك الإبتلاءات وهذه مهمة التواصي .. ومهمة جماعة المسلمين فيما بينهم من جهد جماعي متنامي ومستمر لان الخطاب بالفعل الماضي (تواصوا) يعني مواصلة هذا التواصي .. واستطيع أن أهندس معاني هذا النص القرآني الوارد في سورة العصر وأقربه للفهم بهذا المثلث الذهبي :-

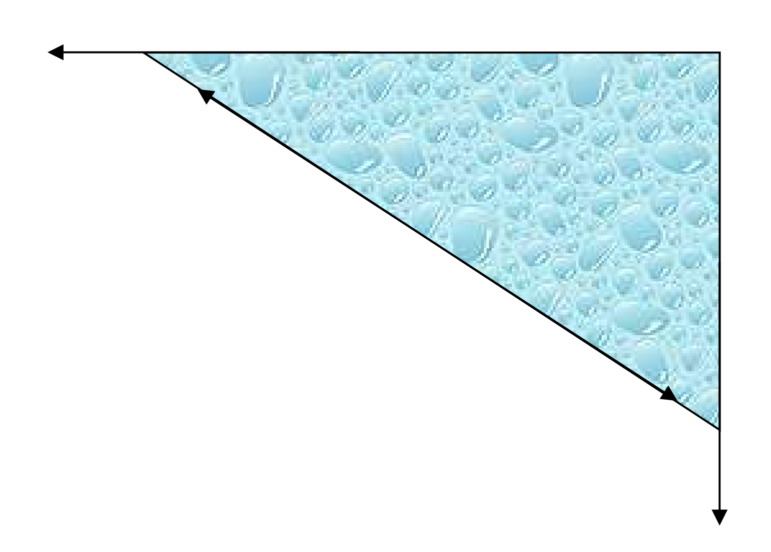
1) **الذين آمنوا :** هو فعل كل عمل يعمق الأيمان في النفس ويعمر دواخل الإنسان من صلاة وصيام وشعائر وقيام ليل وخشوع .. وهو خط رأسي يمتد إلي عمق النفس .

2) **وعملوا الصالحات :** هو كل الأفعال الصالحة للبشرية ، وللحياة والبيئة من إكتشاف البنسلين ، الطب ، الكهرباء ، الطائرة ، نظرية النسبية ، الجاذبية ، وخلافه ... وهي بلغة هندسية تمثل خطاً أفقياً يعمل في شعاب الحياة كلها ، ويستضيء بنور الأيمان لأنه يخرج من أفراد جودوا عمارة بواطنهم .. وهو خط أفقي .

3) **وتوا صوا بالحق وتوا صوا بالصبر :** وهو يمثل عنصر تعامل جماعة المسلمين فيما بينها في النصيحة والتسديد والمراقبة .. وهذا يمثل (الوتر) في المثلث ، ويمثل برج المراقبة الذي يجعل طرفي الأيمان والعمل الصالح في تناغم .. لا يطغي أمر الروح وأمر إعمار الداخل علي حركة والمجتمع ولا العكس .

عملوا الصالحات

(خط أفقي لإعمار الحياة)



الذين امنوا

(خط يشير إلي إعمار عمق الإنسان)

وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

(صمام الأمان وبرج المراقبة بين الإفراط والتفريط في كلا الأمرين)

أ سوق كل ذلك .. إلي كل هؤلاء .. والي نفسي الكثيرة العيوب .. فلعلي ولعلهم .. ولعلنا جميعاً ..

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

شكر وعرفان

الثناء على الله والشكر له والذي قدر ويسر أمر هذه الر سالة فخرجت للناس في طبعتها الثانية بعد أن نفذت طبعتها الأولى .

والوفاء والشكر لأخوة أكرمين ساهموا في إخراجها بدرجات مختلفة أوجزهم فيما يلي :

1. الأخ الكريم السيد / النائب الأول لرئيس الجمهورية الأستاذ / علي عثمان محمد طه راعي مشروع الخرطوم عاصمة للثقافة العربية 2005م .

2. والأخوة في الإدارة العليا للخرطوم عاصمة الثقافة العربية 2005م وعلى رأسهم السيد / وزير الثقافة الاتحادي الأستاذ / عبد الباسط عبد الماجد ورهطه الميمون :المهندس / السعيد عثمان محجوب ود. عثمان جمال الدين وعبد الحميد الفضل .

3. والأخوة الشباب الذين سهروا على جمع هذه المادة في صورتها الأولية وهم :

- أمير محمود عبد السلام .
- علي عثمان قشي .
- كوثر الصافي .
- حامد محمد معسول .
- خالد عبد الفتاح .

وأسأل الله تعالى أن نكون عبيداً ربانيين نمشي بين الناس بالخير والفيض .. وأن يكون هذا العمل مقبولاً عنده إنه سميع مجيب الدعاء .

مهندس

الصافي جعفر الصافي

مدينة الفردوس – الخرطوم

مارس 2005م

إنحناءة وإهداء

إلي أخوتي ...

رفقاء السجن وسُكّان الزنازين أوائل السبعينات ..

ذلك الجيل من الشباب طلائع البعث الإسلامي ، والذين عشت معهم أخصب أيام العمر .. ولا تزال شخوصهم الحبيبة ووجوههم النيرات تتراءي لي وتلوح ..

بل لا يزال صدي أصواتهم الشجيات الندية يتردد في سمعي و سمع الزمان وهم يتحلقون حول (المصحف) يتلون قرآن الفجر في فناء ذلك السجن العاتي (كوبر) والذي تحول ساعتئذ إلي بقعة مباركة تتناغم فيها أنفاس الأوّابين والرُكّع السجود ..

إليهم جميعاً أسوق هذه الخواطر والوقفات ...

الصافي

سورة يوسف – مكية وآياتها 111

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) [1] إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [2] نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ
الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ [3] إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ
إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ [4] قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ
عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ [5] وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ
مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [6] لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ [7] إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ [8] اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا
يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ [9] قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي
غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ [10]

قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ [11] أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [12] قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ [13] قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ [14] فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ [15] وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ [16] قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ [17] وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ [18] وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ [19] وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ [20] وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ [21] وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [22]

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ [23] وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ [24] وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [25] قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَ شَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ [26] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ [27] فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ [28] يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ [29] وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ [30] فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ [31] قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ [32]

قَالَ رَبِّ السِّــجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْــرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْــبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ [33] فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [34] ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْــجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ [35] وَدَخَلَ مَعَهُ السِّــجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِــرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِــي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِــنِينَ [36] قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [37] وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْــحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْــرِكَ بِاللّهِ مِن شَــيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْــلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ [38] يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [39] مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ [40] يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ [41]

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ [42] وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ [43] قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ [44] وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ [45] يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ [46] قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ [47] ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ [48] ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ [49] وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ [50] قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ [51] ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ [52]

وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِـــي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّـــوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ [53] وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ [54] قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [55] وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُــفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَــاء نُصِــيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَــاء وَلاَ نُضِــيعُ أَجْرَ الْمُحْسِــنِينَ [56] وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ [57] وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُــفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ [58] وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ [59] فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ [60] قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ [61] وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [62] فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِــلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [63] قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [64] وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَــاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَــاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ [65] قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ [66]

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [67] وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ [68] وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ [69] فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ [70] قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ [71] قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ [72] قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ [73] قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ [74] قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ [75] فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ [76] قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ [77]

قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [78] قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّآ إِذًا لَّظَالِمُونَ [79] فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ [80] ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ [81] وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [82] قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [83] وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [84] قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ [85] قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [86] يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [87] فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ [88] قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ [89]

قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُــفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُــفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْــبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [90] قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ [91] اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِــيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ [93] وَلَمَّا فَصَــلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ [94] قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ [95] فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِــيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِــيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [96] قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ [97] قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [98] فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ [99] وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّــجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّــيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [100] رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [101]

ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ [102] وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ [103] وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ [104] وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ [105] وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ [106] أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ [107] قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [108] وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ [109] حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ [110] لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [111]

رجع الصدى

يعود تاريخ هذه التأملات والخواطر إلي ما قبل ثلاثين عام – 1970 – والزمان غضٌّ وعليَّ بَرْد شــباب ، وكان الســودان تحت الحكم المايوي القاهر يومئذ .. وتحرك الوطنيون والإســلاميون معارضــين ، وأمتلأت الســجون والمعتقلات . وفي ســجن كوبر كنا مئات من الشــباب خريجي الجامعات ، من مهندســين وأطباء وغيرهم ، حشــدونا في أجنحة كوبر المختلفة (الزنازين) ، (الشرقيات) ، (السراية) .. ولا أنسي كيف تحول هذا السجن العاتِ – موئل عتاة المجرمين – إلي مســجد كبير يعجُّ بالراكعين والســجَّد البُكِيِّ ، ومن طرائف المقابلات أنَّا كنا نقرأ تفســير ســورة ((الزلزلة)) فنمرُّ علي الآية (يومئذ تحدث أخبارها) فنقرأ في التفسير الأثر ((تحدِّث كل ارض بما كان عليها من خير ، وما كان عليها من شر ، حتى أن بعض البقاع تشتكي إلي الله انه لم يُذكر الله فيها)) .. فكان يهتف قائلنا في طرف الحلقة (لعلّ ســاحات كوبر هذه قد شــكت إلي الله وحنَّتْ إلي ذكره فاستجاب الله لها وجاء بنا) .

داخل سـجن كوبر كان هناك متسـع لمثل هذه الوقفات ، ولا أنسـي جلسـاتي مع أولئك الإخوة الشـفيفين نتناول أصـنافاً من التأملات ، وعلي سـبيل المثال بدأنا نحرر (كُرَّاسـة) عن (مصـارع الجبَّارين في القرآن) ، وهو مشروع كتاب لم يتم بعد .. ولقد كان لسورة يو سف حظ كبير من التأمل .. ذلك إننا كنا نري أن خاصـية السـجن جمعتنا به ، وجعلتنا نترسّـم خطاه ، فكانت الأحاديث والأسمار تدور عن اهتمامات يو سف في السجن ، وكيف حوَّل سجنه إلي ساحات دعوة ، ومنطلق تحرك ، وما كنا نأبه لمسالكه وهو وزير للمالية وداخل بلاط الملك لأنا كنا نعد أمر السلطة أمراً بعيد المنال عنَّا في ذلك الزمان ..

وخرجنا من السجون ، و ضربنا في شعب الحياة ، ودار الزمان و شبَّ أولئك الشباب اليُفَّعْ عن الطوق ، وأخذوا أماكنهم في الحياة العامة خبراء وأفذاذ (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ..

وجاءت ثورة الإنقاذ ، وإذ بأولئك الصبية سجناء السبعينات ومضطهدي كوبر ونزلاء الزنازين يأخذون زمام المبادرة ، ويصبحون أرقاماً في الحياة لا تخطؤها العين (ولاة ، ووزراء متنفذين) .. وإذا بذاكرتي تعود إلي (كوبر) وذكرياته ، وأطلَّت من بعيد خواطر الأمس الغارب عن (سورة يوسف) والتي كانت أحاديث وأسماراً ..

ووجدتني مدفوعاً لبعث تلك الخواطر والتأملات التي كانت بدايتها كوبر جناح (السراية) ، فعكفت علي نحت الذاكرة ، فجاءت هذه الخواطر .. فالي تفاصيل تلك الأحاديث والرؤى عساها تعيننا علي وقفة صريحة مع الذات ، وعسانا نكون من الشاكرين لله علي ما أنعم ، وبعد ذلك لعلِّي ولعلَّك .. ولعلَّهم ..

الصافي جعفر الصافي

الخرطوم – مدينة الفردوس

سبتمبر 1999م

مدخل وتقديم

هذه أسطر من أدب الرقائق ، وجولة من جولات التأمل في دهاليز (سورة يوسف) .. نتابع قصة هذا النبي وقصة والده (يعقوب) من محور تربوي ومعمار داخلي ، وسنلاحظ كيف عاشت هذه الأسرة فترة الإبتلاءات .. ثم كيف كان سلوكها وقد مَنَّ الله علي يوسف بالوزارة والتمكين والسلطة والسياسة .

سنقف علي نموذج من نماذج هؤلاء الربانيين ، ونتابع برنامجهم اليومي وهم في غياهب المعتقلات ومن وراء القضبان .. ونقف علي إنفعالاتهم وهم في قمة النصر والقوة .

نضع كل ذلك أمام أعيننا لكي نتأسَّي به بوصفنا مسلمين ونحن نخطو خطوات واسعة نحو التمكين لدين الله تعالي ، وحولنا بوادر صحوة إقليمية وعالمية ، ونستطيع بذلك أن ندرك التفسير لبعض محطات الفشل في تاريخ حركة الإسلام منذ الدولة الأموية ، وكيف بدأت تفلت الدولة والسياسة من وعاء الدين .. وباينت المصالح ودواعي الهوى بين الأمرين وهما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة .

وفي تاريخنا المعا صر يعكس واقعنا المهين نحن المـ سلمين أ صنافاً من أنواع التفلُّت ، والتجربة الأفغانية خير شـاهد ، فلقد انتصـرت علي الوجود السـوفيتي ولكنها عجزت أن تنتصـر علي دواعي الهوى ورعونات الذات .

ويتأكد لدينا إننا نعاني من (أزمات تربوية) ، أشـارت جملة من الأحاديث النبوية إليها ، قال عليه السلام : (ما الفقر أخشي عليكم ولكني أخشي عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتتنافسوا فيها فتهلكوا كما هلك الذين من قبلكم) .

ولقد بدأت تباشير التمكين في السودان وطرح المشروع الإسلامي بعد سنوات من التخطيط .

وانتظم الجهاد الشـارع السـوداني ، وذاعت في صـفوف الشـعب مفردات الأيمان والشـهادة والإ ستشهاد .. وأبتُعثت إرادات ونهضت هِمم ، وهذا بلا شك تغيير وا سع ومنعطف خطير ، فكان لا بد من وقفات مراجعة ، ولا بد للمحارب أن يستريح ليستجمع أنفاسه .

السطور القادمة هي سياحة ووقفات مع الذات من خلال نموذج قرآني في سورة يو سف ، لنري مسار التمكين في حياة هذا الرباني ، وكيف مرَّ عبر مسلسل من الإبتلاءات حتى نضج عوده ور شد وملك نفسه من نزعات الهوى ونزق القوة ، فصار أميناً علي المسؤولية ، وأميناً علي عباد الله .. وسنري كيف سار إلي ربه عبر الطريقين : الإبتلاء والتمكين .. فما وهن ، وكان حاضراً مع ربه ، مستذكراً معيته في كل أحواله .. في السجن ، في القصر ، في الرق ، في الحرية ..

نري كذلك كيف كان صبر يعقوب عليه السلام وحسن ظنّه بربّه رغم أجواء الإحباط والظروف الصعبة والحقائق المُرّة في فقدانه لولديه وذهاب بصره ، وهو بعد ذلك كله يرجو الله .. (أذهبوا فتحسَّسوا من يوسف وأخيه ولا تأيسوا من روح الله) .

إنَّ كثيراً من الضربات توالت علي مشروعنا الإسلامي في السودان ولا تزال تتوالي من أهل الباطل ، وبعضها من داخلنا ، وقد أدي ذلك إلي انتشار شيء من روح الإنهزام أحياناً ، والإحساس باليأس قليلاً ما ، وهذا شعور ينافي سلوك المقبلين علي الله ، السائرين إليه .

فلا بد من حســن الظن وتطهير الصـفوف وإنشـاء روح التواصـي بالحق والإعتراف بالخطأ ومعالجته لكي نحمي الجبهة الداخلية من أمراض تؤثِّر في إيقاع المسيرة .

الورقات التالية كذلك هي نقطة إرتكاز بعد نفرة وجهاد .. وهي محطة تزوُّد وإسـتراحة لكي نستبصر ونتأمل ونشكر الله علي ما آتانا من نعمة .

وهي من قبل ذلك كله باب من التوا صي بالحق لي ولغيري من المهتمين بهذا الشأن ، وهي قراءة جديدة لنص قرآني قديم ، وتنزيله علي الواقع ، لأنَّ القرآن هو آخر خطاب للبشرية ، وهو ليس كتاب (حكاوي وقصـص) بقدر ما هو كتاب يتخذ القصـة بقوالبها المتعددة لتأصـيل المنهج الذي يخطه للمسلم فيتخذ منه العبرة .

والله أســأل أن يتقبَّل عثراتنا في فهم كتابه.. وأن يرزقنا بصـائر نفرِّق بها بين الحق والباطل .. وأن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم .

المحاور والإطار

(يوسف) سورة مكية نزلت علي الرسول (ص) في مناخ كله كيد وعنت ، وهي أشبه بالمواساة والعزاء وتوضيح أن نهاية المطاف هي خير وفير (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا) يوسف – 110.

وصف القرآن القصة بأنها (أحسن القصص) ، وهي تزكية قرآنية لها مدلولاتها وموحياتها .. لذلك تحتشد السورة بكل ما هو حسن أداءً ، وإخراجاً ، وتغطي مساحات كثيرة في الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية فهي :

- تتناول الحب الأبوي والغيرة بين الأخوان .
- تنتقل إلي مجتمعات الحضر وسلوكيات أهل القصور من الترف وتداعياته ، وتعكس دنيا الشهوات والفوران الجنسي والبرود في معالجة الأزمات الجنسية .

- تتحدث عن السجون – ورواده – وإهتماماتهم .

- تتناول كل هذه الإبتلاءات وتعبر بها إلي أيام المسرات والفتح والوزارة والمال والجاه .

فهي سورة تدور في شعاب الحياة وألوانها المختلفة المتباينة ، كل ذلك في طرح أخَّاذ يستجيب لأشواق كل الشرائح داخل أمة المسلمين بناة الدولة من سياسيين وإقتصاديين ، والمهتمين بالحركة الإجتماعية ، وأهل الرقائق والأنفاس ، والمولعين بالثقافة وفنون الدراما والسيناريو .. والقصة تخاطب كل هذه الشرائح وتستجيب لها ، ثم تختم السورة لتو ضح الغرض من السرد ، وتنفذ من خلاله إلي القضية الكبرى ، والمحور الأوحد الذي هو قضية التوحيد والدعوة إلي الله بشتى الوسائل ، وتكون آخر كلماتها العزاء وشحذ الهمة للصبر والمصابرة .

كل هذه المساحات تعالجها السورة في أداء ممتاز وإخراج يتميز بالإبانة ، وذلك من صميم النهج القرآني (البلاغ المبين) ، والإبانة تظهر في صورة توازن عجيب ، فالأداء لا يشغله (الإطار) عن الصورة ، ولا الصورة عن (الإطار) ،

فهو أداء يحافظ علي الخصـــائص الفنية في أعلي مراتبها ، والملاحظ الجمالية في دقتها ، كل ذلك دون إخلال بالفكرة والهدف لذلك كله كانت (أحسن القصص) .. فإلي تفصيل القصة ..

مفتاح السورة :

تبدأ القصة بالرؤيا والتي ستظل هي المحور الرئيسي للأحداث ، تشكِّل النهايات السعيدة لها..

يقول الله سبحانه وتعالي علي لسان يو سف وهو يخاطب أباه يعقوب : (إِذْ قَالَ يُو سُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ [4] قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّـيْطَانَ لِلإِنسَـانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ [5] وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [6]) .

والرؤيا كما ورد في الآثار هي جزء من النبوة ، بل هي أول ملامح النبوة وتباشـــيرها كما قال عليه السلام : (لم يبق بعدي من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو تُري له) .. وحكم رسول الله (ص) بأنها جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة.

تبدأ القصة بالرؤيا والتي تحمل نبوة وبشري ليو سف عليه السلام ، ويظل القارئ وعبر سنوات طوال حافلة بالمواقف والأحداث مشدود لتحقيق هذه (الرؤيا) ، يحبس أنفاسه ، يعلو ويهبط ويمر به الشـــريط عبر الجب والرق والســـجن والظلام الدامس والفجر لم يطلع بعد تحجبه غابات وتلول وجبال ، إلي أن تنتهي القصــة بمهرجان النصــر وتحقيق الرؤيا (هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا)

طريق طويل لاحِب ، إمتد عشرات السنين .. كانت بدايته يوم (رأيتهم لي ساجدين) ونهايته في إحتفاء النصر (وخرُّوا له سُجَّداً) .. ويمكن إجمال مراحل الطريق في مرحلتين كبيرتين بينهما وقفات :المرحلة الأولي :

1. الإختبار والتجمير :

وهذه تمضي في خط سير متتابع

- كيد إخوته له ورميه في (الجب) .
- القافلة السيَّارة والتي أخذته بضاعة وباعته عبداً
- أيام الرق في دار العزيز
- فتنة النساء
- أيام السجن

المرحلة الثانية :

2. فيوضات وتمكين :

- وهذه تبدأ من آخر أيامه في السجن ثم تتواصل :
- رؤيا الملك
- خروجه من السجن مبرأً من كل ما نسب إليه

-

- تعيينه وزيراً للملك وإستخلافه لنفسه

- إجتماع أخيه به

- جمع شمله بأبويه وإخوته

و سنلاحظ أن (اللطف الإلهي) يتداخل في كل هذه المراحل وأن عناية الله تكلأ الشاب العبراني المُجتبَى .

الباب الأول إختبار وتجمير

مدخل:

جاءت مادة الإبتلاء في المعجم بمعني الإختبار ، وأورد الراغب الأصـفهاني في كتابه (مفردات القرآن) :

(بلوته : إختبرته .. بَلِيَ الثوب أي خَلُقْ كأني أخلقته من كثرة إختباري له .. وقُرِيء (هنالك نبلو كل نفس ما أسلفت) أي تعرف حقيقة ما عملت ، ولذلك قيل : (أبليت فلاناً) إذا إختبرته .. وسُمِّي الغمُّ بلاءً حيث أنه يبلي الجسـم قال تعالي : (وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم) ، وقال (إن هذا لهو البلاء المبين) .

ومن هنا يتضـح لنا لغوياً إن الإبتلاء هو الإختبار .. والحياة جميعها هي مسـرح للإبتلاء والإختبار والتمايز .. يقول الحق سبحانه وتعالي : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) ولذلك كانت حركة الحياة في عمومها تمحيصاً وإختباراً ،

والإختبار يشمل مناشط الحياة من مسرات ومنغِّصات .. ألا تري إلي قوله تعالي : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعَّمه فيقول ربي أكرمن ، وأما اذا ما إبتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهاننِ) كيف أطلق عنوان الإبتلاء في حالتي (أكرمه ، ونعَّمه) وحال (فَقَدرَ عليه رزقه) ..

وهنا يقول الراغب في المفردات : (إن إختبار الله للعباد تارة يكون بالمسار ليشكروا ، وتارة بالمضار ليصبروا ، فصارت المحنة والمنحة جميعاً بلاءاً ، فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر .. والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر فصارت المنحة أعظم البلاءين ، وبهذا النظر قال عمر رضوان الله عليه : (ابتلينا بالضراء فصبرنا وأبتلينا بالسراء فلم نصبر) ، و(ربما كان المنع هو عين العطاء) كما في حِكَم إبن عطاء الله السكندري .

ولتقريب وجهي الإبتلاء مسرة ومضرة نذكر أن التيار الكهربائي الذي نلمس أثره يعطي نوعين من النتائج ، فتيار كهربائي بمعادلة معينه يعطيك فرناً ساخناً بدرجات حرارة عالية للغاية ، وذات التيار بمعادلات أخري يتحول إلي ثلاجة مبردة تصل إلي ما تحت الصفر ،

وهما في الأصل وجهان لعملة واحدة رغم التناقض المظهري ، وتأكد لنا من خلال النصوص بان الحياة في مجملها فترة تجربة وإختبار ، فان الإختبار أحياناً يأخذ شكل الرفاهة في العيش وإ ستجابة الرغبات ، أحياناً أخري يبرز في شكل منغصات ونقصان مراد ، ولكن يبقي السؤال فيم هذا الإختبار ؟ وأسرار الله التي إستكنَّها في أقداره ولا يعلمها إلا الله علي وجه الإحاطة فهي من أسرار القدر ، لكن من الملامح التي تنقدح في الذهن أن هذا الإبتلاء جميعه هو محض خير للعباد :

- إن كانوا مخالفين أشــراراً فإن البلوى تذكِّرهم لعلهم يرجعون ، وفي أخف أحوالها تحِدُّ من غلوائهم فلا يزدادون بُعداً من الله .

- وإن كانوا أخياراً فإن البلوى تطوي بهم المسافات إلي ساحات ربهم فيركضون إليه .

ولنقرأ هذه الآيات :

(تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك علي كل شيء قدير) آل عمران

فالآيات تتحدث عن (تمكين) ، (ونزع) ، (وعز) ، (وذل) ثم تختتم بهذه الخاتمة العجيبة (بيدك الخير) .. فســمَّي كل هذه المظاهر من المســرات والمنغصــات (خير) ، فكان الإبتلاء هو محض رحمة للعباد .

بهذه المحاولة للفهم ندلف إلي سورة (يو سف) لنبدأ بمحور الإبتلاء والذي سنصحب فيه هذه الأسرة المتفردة .. نبدأها بشيخها نبي الله يعقوب عليه السلام .

1 / يعقوب والمنغصات

أسرة كريمة ذات حسب ونسب وصلاح متوارث ، فيعقوب من بيت نبوة (إسحق وإبراهيم) والمناخ نبيل كريم ..

والصبي يوسف يقص علي أبيه هذه الرؤيا العجيبة التفاصيل :-

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ [4] قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ [5]) .

رؤيا تحمل خبراً وبشارة يفهمها الوالد الشيخ فينصح ولده بان يكتم خبره لئلا يثير الغيرة في صدور إخوته ، وهي تعكس معرفة الشيخ بالطبائع البشرية .

أسرة ذات مجد وإرث من دين وتقوي سترتقي سلالم (الإجتباء) ، ولان طريق الإجتباء هذا طويل وصعب لا بد له من منشطات ولا بد له من (محطات صيانة) ، وهذه المحطات هي جملة الإبتلاءات التي عاشتها الأسرة .. ابتلاءات قطعت من خلالها المسافات نهباً

وبســـرعة ما كانت تتأتي لها لو عاشـــت في بحبوحة العيش بعيدة عن (وقود الإبتلاء) ، ولَفَاتها الركب الميمِّم شطر ربه .. ولذلك سنلاحظ أن يعقوب عليه السلام مرت مرحلته الإيمانية بمراحل من المحن :-

1 . فقد إبنه الصغير الذي يحبه ويؤثره (يوسف) .

2 . إكتشف أن الذين تآمروا عليه هم أبناؤه من صلبه وان الكيد خرج من داخل داره وهي دار نبوة .إمتد به الأسي وتكاثر حين فقد إبنه (بنيامين) أيضاً .

3 . فقد بصره من تكاثر الآلام عليه (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) .

ولكنا نلاحظ ردود أفعاله أمام هذه المحن فنجدها ردوداً راشـــدة تنبئ عن نفس صـــابرة وقلب متوكل أواب ، فهو عندما إفتقد إبنه يوســف الحبيب إليه أدرك أن من وراء ذلك حكمة ، فهتف في أبناءه المتآمرين (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) تذرَّع بالصبر الجميل وتزيَّا بزيه وإستعان بالله ..

فتحرك خطوة في سيره إلي ربه ، و سلك نفس المنهاج عندما بلغه خبر (بنيامين) المحبوس .. وحرك فيه أساه القديم فناجي ربه محسناً الظن فيه (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [86] يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) .

يشـكوا أحزانه إلي ربه ويتطلع من خلف ركام المصـائب والمحن إلي أمل كبير أن يجمعه الله بهما جميعاً فينفي عنه عوامل اليأس ، ويحذر أبناءه أن يركنوا لليأس من روح الله لأنَّ هذه صــفة الكافرين .

2 / يوسف والدرب الطويل

نبي الله يوسف عليه السلام هو كما وصفه سيد الأولين والآخرين (إبن الأكرمين) ، فهو يوسف بن يعقوب بن ا سحق بن إبراهيم أبي الأنبياء ، سلسلة من الأنبياء وال صالحين ، وأرباب الحسب والوجاهة .

وهو بعد ذلك يتمتع بجمال في الخلق ووسامة غير مسبوقة ، وهو صاحب حظوة عند والده النبي ، يحبه محبة لا يحبها لسائر أبناءه .

وإبتلاءات يوسف عليه السلام تتميز بظاهرتين :

1 / الظاهرة الأولي : الإبتلاء جاء ليعالج سلبيات وآثار جانبية لمميزات يوسف عليه السلام التي يتفوق بها علي غيره (الجمال .. الحسب .. الخ) .. فهو ليس ابتلاء عشوائياً إنما هو إجراء وقائي من نتوءات المميزات وأورامها .

2 / الظاهرة الثانية : نلاحظ أن اللطف الإلهي يصاحب كل ابتلاء حلَّ بيوسف ، وسنلمس أن في داخل لهيب الإبتلاء تكمن كبسولة الألطاف الإلهية (إن مع العسر يسرا) .

ونعلم أن خصائص الحسب والنسب والجمال الوجاهة الإجتماعية لها إفرازاتها السلبية . والرجل مرشح لمقام النبوة والإجتباء فلا بد من توفير ضمانات له في مسيرته القاصدة تقيه آفات الطريق وهجمات (النهب المسلح) حتى يسيرا سيراً آمناً حثيثاً إلي أهدافه العراض .

وسنتابع هذه الخصائص والإجراءات الوقائية التي اتخذت حيال معالجة سلبياتها ، ونلاحظ أن اللطف الإلهي يصاحب كل مراحل هذه الإبتلاءات .

الخصائص والمعالجات

1 / الحسب والنسب :

وهي مقومات ذات أثر في التكوين البشري ولها إفرازاتها السلبية ، ولكن الألطاف الإلهية تسوق إبتلاءاتها (ليو سف) في هذه المحطة لعلاج هذه السلبيات المتوقعة ، وعلي ضوء هذا المعيار نقراء ما تم له من بلايا ومعالجات :

أ- الكيد :

هو فتي أثير عند والديه لا يجد إلا الحب والإيثار ، فإذا به يبتلي بمكايدة أقرب الناس إليه رحماً ، يتآمرون عليه ويطرحون بدائل للتخلص منه ، أقلها أن يرموه في الجب (اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ [9] قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ) .

أن الحق ســبحانه وتعالي يريد لعبده المجتبي (يوســف) ألا يركن إلي محبة مخلوق أو إعجاب بشـر ، ولا يأمن مكر الله في ذلك ، ليتعلم أن يكون نزَّاعاً إلي الله .. ونلاحظ مداخلات اللطف الإلهي في أنهم لم يقتلوه وإنما قذفوه داخل البئر ليقضي الله أمراً كان مفعولا .

ب- القافلة :

تمضي معالجة سلبيات هاتيك الخصائص وإتخاذ الوقاية منها فنقرأ : (وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) .

والإبتلاء هنا أنهم أسرُّوه بضاعة من ضمن مشترياتهم وهو من هو .. والعبارة (أسرُّوه) عندما تقابلها عبارة (الله عليم) تتعجب من اللطف والإحاطة الإلهية من وراء ستور الغيب .

(وأسرُّوه بضاعة) هي المرحلة الأولي ، وتأتي مرحلة الإبتلاء الثانية – وهي أشد في الإيذاء – من جنس خصائص الحسب والنسب والأرومة ، فنقرأ قوله تعالي : (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) .

انظر الي ارتفاع حرارة الإبتلاء والقرصات بعد أن تفكِّك هذه العبارات الي ثلاث مراحل : (شروه بثمن بخس) ، (دراهم معدودة) ، وبعد ذلك كله (كانوا فيه من الزاهدين) .

ج- حياة الرق :

تمضي القصة فنعلم أن يو سف بيع في أ سواق مصر وان الذي ا شتراه هو احد وجهاء المجتمع المصــري ، وهنا نشــعر بيد القدر الحانية إذ لم يقم بشــرائه رجل فظ غليظ وإنما رجل من الطبقة الارستقراطية ، أنيق اللفظ ، يعيش نعومة العيش .

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)

العبارات تنضــح باللطف .. فليس من العادة أن يكون توجيه ســيد مطاع إمراته في خصــوص عبد من عبيده اشتراه من حُرِّ ماله (أكرمي مثواه) والمثوى مكان الثوى و الإقامة ، فكأنَّ الأمر بالإكرام يتجاوز يوســف في خاصــة نفســه الي إكرام مكان إقامته (غرفته وفراشــه) .. ومن هنا يطل اللطف الإلهي داخل كبسولة الابتلاء خاصة إذا تذكرنا أن آخر مثوى له كان في أعماق الجب .

ثم يحدثنا القرآن من داخل مناخ الرق والعبودية في قصـــر العزيز عن بشـــارة غريبة المفردات (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُــفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

ياعجباً لأمر الله ... أيأتي التمكين في الأرض من خلال (الرق والعبودية) ؟ ... انه الله الفعال الغالب على أمره ، وصـدق الشـاعر السـوداني (محمد المهدي المجذوب) في قصـيدته (المولد) حيث قال :-

أيكون الخير في الشر إنطوى ؟

والقُوَى خرجت من ذرة

هي حبلي بالعدم ... !

وسنرى مصداق هذه النبوءة القرآنية المبكرة فيما نستقبل من أحداث .

2 / الجمال والوسامة

وهي مميزات انفرد بها هذا الفتى العبراني القادم من البادية .. والذي اخذ موقعه من (القصر) في دار العزيز ومع (امرأة العزيز)

يأتي الابتلاء هذه المرة ليِّن الملمس ...

ينساب انسياب الماء ولا يشبه ابتلاء (الجب) والكيد .. انه خاص بعالم النساء ، نساء الطبقة الارستقراطية المولعات بالجمال والأناقة .. ويريد الحق أن يمتحن عبده المجتبى يوسف في منطقة هي أكثر المناطق (هشاشة) وعرضة للإفتتان في الطبائع البشرية ، خاصة عندما يكون الإنسان وسيماً وفي مقتبل العمر ، وهذه الصفات تشكل مداخل للشيطان ، فلابد لنبي الله (يوسف) أن يصطلي بنار هذه المميزات قبل أن ينعم بنورها فتنعكس على ذاته ألقاً وضياء .

أ – إمراة العزيز :-

فنقرأ في ضوء هذه المعطيات تفا صيل هذا الابتلاء (فتنة النساء) في المقاطع التالية من كتاب الله : (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِــهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

انظر الي نوعيه الابتلاء ... ابتلاء ناعم يسـري سـريان النسـيم .. امرأة ذات جمال ومنصـب ومال تعشق صبياً غضّاً ، عشقاً يملأ عليها أقطار نفسها ويفقدها حتى حياء المرأة (وراودته) .. وهي من رودان الإبل وتعني المحاول بعد المحاولة .

(وغلَّقت الأبواب) ... بعيداً عن الناس ، وهو إغلاق مشــدَّد ، وما اكتفت بذلك بل نادته (هيت لك) ، والصبي العبراني المجتبى يجاوب على الفور : (معاذ الله انه ربي أحسن مثواي) ..

ولم تكتف المرأة بل انطلقت في شـــبق عارم (ولقد همَّت به) ، والآيات تراقب الموقف وتصـــوِّر تفا صيله (وهمَّ بها) .. وللنفس البشرية منحنيات وأزقّة .. (وهمَّ بها) حدثته نفسه ، وهذا اقرب إلى الطبيعة البشرية (وهو ماذهب إليه ابن عباس وغيره) وعندي هو الأقرب ، ليتبين جهاده والقه ، وأنَّه حين تعفّف عن الغواية كان رجلاً مكتمل الفحولة ولا يعاني من فقر في مشاعره (لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) .. وهنا تأتي تداخلات اللطف الإلهي .. عفَّ وكفَّ ونال من الله هذه الجائزة ، وهذه التزكية الحميمة (انه من عبادنا المخلصين)

(ب) نساء الطبقة الارستقراطية :-

وتســتمر معركته مع (إمراة العزيز) ... (وألفيا ســيدها لدا الباب) ، وتثور لنفســها أمام تعففه ، وتثأر لكرامتها وتأبّيه عليها (مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .. ويتحقق العزيز إن إمراته حاولت فتاها من خلال قميصه الذي قُدَّ من دُبر .. يعلم ذلك ولكنه يسلك سلوك بعض المجتمعات الارستقراطية والطبقات العليا التي تفقد وازع الورع ،

والتي تقل عندها مفردات الحَمِية والغيرة فتنظر إلى القضـايا الجنسـية نظرة فيها برود (يُوسُـفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)

وينتشـر خبر إمراة العزيز بين نسـاء الطبقات الراقية في المجتمع المصـري ، وأنها راودت فتاها ، فتتحيّن الفر صة للإيقاع بهِنَّ وتر سم خطة ، فتدعوهنَّ إلى حفل بهيج راق يُبسط فيه من طيّب الطعام وطيّب الفاكهة .. والمائدة تذخر بالمعدات الراقية (السـكاكين .. والأشـواك) ، وفي أيديهن هذه المُدَي يستعِنّ بها على تقطيع الفاكهة أحجاماً صغيرة .. وفجأة تأمر إمراة العزيز فتاها (وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ) .

تتسـع دائرة الإبتلاء فتتعلّق به نسـاء ذوات مناصـب وجمال (أكبرنه) ، ومن شـدة ما بهرهن جماله قطّعن بتشـديد الطاء وليس (قَطَعنَ) أيديهن ، وهي من أغلي ما تملك النسـاء من مواضـع الجمال ، فالتقطت إمراة العزيز القفاز وقالت علي التو : (فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) .

إعترفت وتوعّدت وتجبّرت وهدّدت فتاها بالســجن والصَّــغَار وهي لا تدري أن الســجن سيكون مفتاح العزة والسلطان لا الصَّغَار كما أرادت .

والفتي يسمع هذا الحديث الذي يدور بين نساء الطبقات الراقية واللاتي فُتِنَّ به ، وأصبحن مشــدودات إليه ، انه امتحان راق عصــيٍّ وخطير في آنٍ واحد لشــاب بلغ الحلم ، غريب ورقيق ولم يتزوج بعد .

إعتملت في نفسه عوامل شتي كان أوضحها المضي في طريق التعفف والإستعلاء علي هذه الفتنة والإستعانة بالله علي هذا الأمر .

وقال مناجياً ربه لأنه ساعتئذ رقيق لا يملك من أمره شيئاً ، فدعي ربه دعاء المضطر المتعفف (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ) ، يختار قيد السجن بعد قيد الرق ، ويختار أن تصادر حريته ما شاء الله علي أن لا يقع في الفتنة .. انه عبد مختار مجتبي يملك عزيمة لا تتزلزل ،

ثم يتواضــع ويناجي ربه في إتزان وواقعية يذكر فيه بشــريته وضــعفه (وَإِلاَّ تَصْــرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ) .

أنظر إلي هذا الخوف من شرور نفسه ومنحنياتها فيأرز إلي الله ويستجير به ، وهي لفتة للسائرين علي الدرب ألا يغرهم وهم الإنتماء لكيان أو جماعة عن معرفة مواطن الضعف والهشاشة في أنفسهم فيحرسون ثغرات هذا الضعف بالمجاهدة والإستعانة بالله . و عندما بلغ هذا المستوي الصادق من مناجاته لربه ما كان الله ليخزيه ..

سمع الله مقالته وتضرعاته (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) . وعلم صدقها ولذلك أراحه فصرف عنه كيدهن (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) .

السجين الرباني

أتخذ القرار بســجنه لتغطية الفضــيحة ، فســيق الي الســجن ، وفي داخل الســجن كان لهذا الفتي العبراني الرباني مسالك تخالف مسالك السجناء خاصة وانه سجين مظلوم ومتهم باتهام باطل لا يليق به إذ هو ينحدر من عائلة نبيلة . كل هذه مواجع قاتلة ولكن لنحبس أنفاســنا لنســمع كلام الله ينقل إلينا يوميات هذا الســجين ، (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّــجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِــرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [36] قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ).

إقترب منه رفيقاه في السجن وتوسَّما فيه خيراً كثيراً (إنا نراك من المحسنين) ، وتحس أخي أن السجين يوسف كان له سمت وسلوك داخل السجن بهر رفيقيه فأحسنا به الظن ،

والســجين رغم مواجعه الكثيرة وجدها فرصــة فبدأها بالتعارف والذي أنتهي عنده بالدعوة إلي منهجه ، فأنظر كيف تمدد فيه هدفه الأســمي وكيف تدرج في دعوة صــاحبيه إلي منهج الله .. نتتبع الخطوات التالية ونسمع للرجل وهو يرسم وسائله للدعوة فقد بدأ :

أولاً : بملاطفة السجينين فأخبرهما بأنه يستطيع أن يعلمهما بكل طعام يأتيهما .. وهذا بسط لقدراته في رفق أقرب إلي المؤانسة ليكتسب ثقتهما .

ثانياً : ويســتمر في ســمره يعلل ســبب ما اختُصّ به .. فترتفع نبرته نوعاً ما وتزداد حرارة كلماته فيســتعمل مفردات أقوي يطرح فيها رأيه في عقيدة القوم (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) ويوضــح منهجه (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْــحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ) ، ثم يرد كل هذه الخصائص والمقومات إلي الله الخالق البارئ (ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ) .. ويختتم عبارته الأولي هذه بتقييم الحالة الأكثرية من الخلق (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ).

ثالثاً : بعد هذه التهيئة لصـاحبيه عبر المرحلتين يعمد إلى الخطاب المباشـر والطرح الواضـح ، ويشـتد الإيقاع فيسـتعمل كلمات ثائرة متمرده يبدؤها بهذا السـؤال المحرك للعقل والوجدان : (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) ؟

ثم يصل الرفض قمَّته (مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُـلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) .. هي فرصه لطرح همَّه الأكبر والخروج من الدوائر الضيقه والاهتمامات التافهة الحقيرة .. ولا بد من وقفه متأنِّيه مع هذا السـجين الرَّبانى الذي قلب السـجن إلى ميدان دعوه.. دعوة هو عاشـق لها (مسكونٌ بها) كما قال الآخر:

أريدُ لأنسَى ذكرها فكأنَّما تَمثَّلُ لى ليلى بكلِّ سبيلُ

أيُّ عظمة هذه..وأيُّ نوع من الرجال هو يوسف..!!

لنستعرض المناخ الذي طرح فيه منهجه في ترتيب ونسق وحكمه ووضوح :

- شاب في مقتبل العمر وريعان الشباب ، ينحدر من عائله ذات حسب ونسب ، يكيد له إخوانه.. يرمونه في الجب ويباع في أرض مصر (رقيقاً).

-يتهم تهمة باطلة كاذبة ، ويرمى في زنزانة في سجن من السجون المصرية..

وهذه العوامل غالباً ما تدمر صــاحبها وتدفعه إلى الإنغلاق و الانكفاء على الحزن و المواجع ، بل تجعل منه شخصيه منهزمة ، ضعيفة.. والذي يحير العقل ويبهره أن هذا الشاب العبراني الغريب في أرض مصــر يخترق كل واقعه المحبِط ويحلِّق فوقه.. يتركه خلفه كما تترك الطائرة دخانها الكثيف وراءها وهى تحلق فوق السحاب..هذه القدرة على التحليق في مثل هذا المناخ والمكان قدرة خارقة للعادة والمألوف.

ونلاحظ أن يوسف السجين :

1. ما شــغله تغير المكان و الزمان عن همه الأكبر وهو الدعوة إلى الله وتبيان المنهج لرفيقي السجن .. كأنه يقول لنا من خلف السنين أن أي بقعة في الأرض هي وطن للمسلم ،

2. وان أي مجموعة من الناس هم بيئة للدعوة ، وان أي ســاعة من العمر هي نذر لأمر الله تعالي .. ويوسف بذلك (يسجّل) نفسه لله تعالي ملكاً حراً .

3. تدرج في طرحه للدعوة ، فتألّف صاحبيه وفسَّر لهم الرؤى ، وعندما أنِسَ منهما شيئاً من الثقة طرح قضيته .

4. طرحه لقضية الدعوة كان طرحاً واضحاً وبكلمات قوية متمردة رغم انه رهين السجن والرق ، ويكفي أن نســتعرض هذه الجمل والعبارات : (إني تركت) (وأتبعت) وهذه بالقطع ليســت الكلمات التي يســتعملها الســجناء..إنها كلمات أحرار طليقين ، أصــحاب إرادات.. بل إن كثيراً من الأحرار و الطلقاء في دنيانا لا يرتقون إلى هذا المســتوى دائماً، وإنما هم عبيد ومســجونون داخل أقفاص الذات و المنفعة والإهتمامات الصغيرة .

5. يصــل قمة الطرح عندما يصــرح بهذه العبارات المتمردة (مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْــمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ)

نحن أمام نموذج فريد ، أسـوقه إلى الدعاة والذين يتعللون بالإمكانيات و المناخ.. نموذج فذ يستصحب معية الله في كل حال ، ويحيل كل ظرف يمر عليه لصالح السير إلى الله .. وكما قال الإمام ابن تيمية :(جنتي في صدري ، أينما رحت فهي معي ، إن قتلى شهادة ، وإن نفيي سياحة ، وإن سجني خلوه).. وهى نفس الصيحة التي أطلقها سيد قطب من وراء قضبان السجون :

أخـي أنت حُرٌّ برغم القيود أخي أنت حـُرٌّ وراء السـدود

إذا كنت بالله مُستمسِكـاً فماذا يُضيرَكَ كيـد العبيد

والربانيون والرساليون هم قبيلة واحدة تستقي من النبع الصافي ، وتتمدد في دواخلها هذه المعاني ، فتنقلب هذه الأنفس والشـخوص إلي (كاسـحات ألغام) تكسـح بعزائمها كل المعوِّقات والمثبِّطات وتخترق الحواجز .

هفوة الكبار :

يمضــي الســجين الرباني أيامه وهو يعيش في هذه الآفاق ، ويفارقه أحد رفيقيه (خادم الملك) في السجن ، فيودِّعه يو سف ويهمس في أذنه بأن يذكره عند ذهابه للقصر ودنيا الملك عسي أن يتذكَّره القوم فيخرجونه .. هم عادي لأيِّ سجين عادي ، ولكن الحق من وراء سمواته قد إدَّخر لهذا الشاب دوراً آخر ومهمة كبري فهو يلاحقه حتى في (الهم والهمس) (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ)

لم يتذكَّر الصبي ما أو صاه به يو سف لحكمة يعلمها الله ، وكانت النتيجة (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)

وهذا من لطف الله ، كأنَّ السجين الرباني لا تزال به بقية ضئيلة من هشا شة وهو مهيأ للنبوة ، وفي شريعة هؤلاء المصطفين الأخيار تحسب عليهم حتى (اللفتة العابرة) عن المسار القا صد ، فهم يتربعون علي بساط (حسنات الأبرار سيئات المقربين) ،

ولذلك قال عليه السلام معلقاً علي هذا المشهد : (رحم الله أخي يوسف ، لو لا كلمته لما لبث في السجن طول ما لبث) .. وقال الحسن البصري عندما قرأ هذه الكلمات وبعد أن بكي : (نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلي الناس) .. ولكننا نلحظ الألطاف الإلهية والأعداد الرباني والذي يحول بين يوسف وبين مجرد الإلتفات لغير الله ، ولذلك جاء القرار بمكثه في السجن (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) والقرار جاء ليمكنه من مقام التوكل وليتربع فيه ، وقد أراد له الحق سبحانه أن يتوغل في دهاليز اليقين ويرتوي من مناهله ويتضلَّع لأنَّه علي مشارف الفتح والتمكين ، لئلاَّ يشغله بريق النصر ووهج الإنتصارات عن استشعار المعيَّة ، حتى إذا ما تمكَّن بَرِيء من شِرك واضح أو خفي ، ولئلاَّ يكون في حناياه موضع لغير العبودية الخالصة لله .

نلملم أطراف هذا الفصل ونودِّع الفتي العبراني وقد أكمل مشوار الإبتلاءات ، ونفتح صفحة جديدة في حياته كلها انتصارات .. سنصحبه وهو السجين الرقيق من قبل وقد صار ذا حظوة ومكانه .. اتسعت سلطاته الإقتصادية والسياسية وأصبح رقماً هاماً في الحياة المصرية ، ورغم ذلك لزم أدب العبودية .. وأدمن شكر النعمة (وما يُقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلقَّاها إلا ذو حظٍّ عظيم)

الباب الثاني فيوضات وتمكين

مدخل :

تتواصل الإبتلاءات علي هذا الشاب العبراني المجتبي وهو يخطو مع كل خطوة نحو رضوان ربه ومعرفته ، وتتلوّن الإبتلاءات بألوان المراحل ، وتتنزل حسب مقتضيات كل مرحلة لتعالج سلبيات وآفات كل مرحلة حتى يخرج منها إلي مرحلة أخري وهو معافى حتى من الهفوة الصغيرة (أذكرني عند ربك) .. وتمضي الأيام علي السجين الرباني في خلوته وتأملاته وشغفه بدعوته التي تصاحبه حتى في ظلام السجن وقد اكتمل حاله ، وفهم الغرض من الإبتلاء ، وانه مرحلة إعداد لدور اكبر ، وعندما تعمّق فيه هذا المعني بدأ الإنفراج والفتح ، والذي سينتهي بنصر وتمكين ، وسيصبح صاحبنا رمزاً من رموز المجتمع المصري ورقماً لا يُتجاوز ، وسيقود عملية التبشير بدين الله ، والتغيير الإجتماعي من سُدَّة الحكم ومن داخل القصور كما قادها وهو في السجن ..

والفتح هذا جاء متدرِّجاً ، والإنفراج جاء وفق خطة مرسومة ، وكل ذلك من لطف الله تعالي في الإخراج .

تباشير الفتح :

جاءت البداية من حيث لا نحتسب نحن ولا يحتسب يو سف ، وهذه قدرة الله الغلاَّبة و شأنه في عباده الصــابرين ، يرزقهم من حيث لا يحتســبون لكي يشــهدوا يد القدرة بصــورة أوضــح .. فإلي تفاصيل التباشير :

- ملك مصر و فرعونها جالسٌ في قصره ، يَهُبُّ منزعجاً ذات صباح فيقصُّ على حاشيته ووزرائه هذه الرؤيا التي يحكيها القرآن :

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَـبْعَ بَقَرَاتٍ سِـمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَـبْعٌ عِجَافٌ وَسَـبْعَ سُـنبُلاَتٍ خُضْـرٍ وَأُخَرَ يَابِسَــاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ [43] قَالُواْ أَضْـغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ)

إلى هنا و الجميع صامت لا يدرى من أمر هذه الرؤيا شيئاً ، بل ينكرون أنهم يعرفون التأويل وهم لا يعلمون أن لله في إنكارهم وعدم معرفتهم شئوناً وشئوناً.

.

ينبري الـ سجين (رفيق يو سف) خادم الملك فيهتف بـ سيده : (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) ، وهو ذات الشخصية التي نسيت و صية يو سف له بأن يذكره أمام الملك و ولحكمة يعلمها الله نسى في ذلك الزمان الوصية وتذكّر (يوسف) في هذه الساعة بالذات .. وأرسل الملك (الخادم) الذي جاء فقابل يوسف وحكي له الرؤيا ومسألة تفسيرها كما تروى الآيات

(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ)

وهنا تبدو مداخلات اللطف الإلهي داخل كبسولة الإبتلاء.. سجين ، رقيق ، متهم يُستفتَى في رؤيا رآها رأس الدولة و شغلت الرأي العام وعجز الجميع عن تفسيرها.. لُطْفٌ إلهيٌّ جاء يسعى إلى هذا الـ شاب العبراني ، فينبري يو سف ، يـ شرح مما علمه الله ويـ ستقرئ جانب من الغيب فيجيب رفيق سجنه : (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ [47]

ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ [48] ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ)

شرح الرؤيا ، وبيَّن أنها تحمل أخباراً مستقبلية ، وفي أثناء شرحه يخبرهم ماذا يفعلون وكيف يخزنون حصاد زراعتهم (فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ) ، ويحدد لهم سبعة سنين زراعة ، ثم سبعاً أخرى قاحلة شديدة ، ثم يضيف من عنده علمه بالعام الخامس عشر

(ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) ، وهو عام لم يرد في رؤيا الملك ..

ويبلغ الملك هذا التفسير فيطمئن إليه وينبهر ، ويتخذ قراراً سريعاً هو بداية الفتح .

قرار وشموخ :

وقال الملك (ائْتُونِي بِهِ) .. قرارٌ ملكيٌّ بالإفراج عن هذا السـجين ..ولكنه كما أسـلفت سـجين فريد ، مؤمن موحد ، سـجين عزيز ينحدر من أسـرة نبيلة تجمع بين العراقة والإيمان بالله ، وهاتان صفتان إذا التقتا أنتجتا شخصية عزيزة عفيفة .

لم يهرع يوسـف إلى الخروج رغم رغبته في الخروج قبل بضـع سـنوات ، لأنه قد تخلص من ذلك الوهن ، واكتمل رشده ، فبماذا أجاب ؟ قال في إباء وشمم : (فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْـأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْـوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ [50] .. يريد ويصـرُّ على التحقيق والاسـتقصـاء حتى يخرج من السـجن وقد برئت سـاحته من التهمة المخلة بالمروءة ، وليكون خروجه إنصـافاً له لا مِنَّةً من السـلطان عليه .. يقول عليه السـلام :(اطلبوا حوائجكم بعزة الأنفس فان الأمور تجري بالمقادير)

ونلمس هنا أن يوســف عليه الســلام يطلب الكرامة لنفســه المؤمنة قبل أن يطلب القرب من السلطان والحظوة عنده ، وهذا ملحظ هام يجب أن يدركه الدعاة .

ونلمس كذلك أن في خطابه تعميم لسـائر النسـوة ، ولم يخص إمراة العزيز رعاية لمشـاعر العزيز وللمرأة على السواء ، وهو سلوك حضاري أنيق تجاه من أحسن إليه . يحترم الملك كبرياء الشاب العبراني يوسـف ، فيأمر بإجراء التحقيق في الاتهام المنسـوب إليه ويسـتدعي النسـوة وامرأة العزيز ويدور هذا الحوار : (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ [51] ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ [52] وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ [53]

نتائج التحقيق وا ضحة جلية ، ومفردته لا لبس فيها ولا غموض من النسوة ومن إمراة العزيز على السواء ، فما كان من الملك إلا أن يتخذ قرار الإفراج والبراءة معاً ،

ويزيد عليهما تقريب الســجين البرئ منه وجعله من خاصــته ومن أهل الحظوة عنده .. (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ [54]

الحظوة والوزارة :

إنَّ تقريب الملك له جاء على ثلاث مراحل :

- قراره الأول (ائْتُونِي بِهِ) وكيف رفض يوسف وأصرَّ على تبرئته قبل أن يظفر بالحظوة والإفراج .
- ثم جاءت الخطوة التي تليها عزيزة (ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي) .. والاستخلاص أمر أعلى من الإستوزار وشَغْل الوظائف الدستورية والتنفيذية الكبيرة .
- فلما تمَّتْ براءته كان القرار في مرحلته (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ) .. (مكين) صاحب تمكين وكيان قوي في سلم الدولة ، وأمين على هذه المكانة .

نحن أمام نموذج لرسالي فريد ، معتز بالله ، لا يتهافت على المغانم ورفه الحياة ، يأتيه الإفراج فيصرُّ ألا يخرج قبل أن يبرئ ساحته ، وتحضرني كلمة الشهيد سيد قطب وهو يعلق على هذا الموقف في (الظلال) :

(فيا ليت رجالاً يمرِّغون كرامتهم على أقدام الحكام وهم أحرارٌ مطلقو السراح ، فيضعون القيود في أعناقهم بأيديهم ، ويتهافتون على نظرة رضـــا وكلمة ثناء وحظوة الأتباع لامكانة الأصــفياء ، ليت هؤلاء يقرأون قصـــة يوســـف ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تُدِرُّ من الربح – حتى المادي – أضعاف ما يُدِرُّه التمرُّغ والتزلُّف والإنحناء) .

جاء النصـــر ينقاد إلى يوســـف (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ).. وأمام هذا النصـــر لم يفقد يوســـف توازنه بأن يســـجد للملك أو يتفوّه بكلمات تعكس تهافته وخِّفته ، وإنَّما عرض على التوِّ إمكانياته وقدراته في شـــمم ، فقد طالب بما يعتقد أنَّه قادر علي أن ينهض به في الســـنوات العجاف والأزمات الإقتصـــادية المقبلة ، وانه يملك إدارة حكيمة للأزمات ، فقال للملك كما حكي القرآن : (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [55] .. إقتراح لحل الأزمة الإقتصـــادية .. لقد ســـأل الأمارة لأنها تعيَّنت عليه ولا يوجد غيره بهذه المواصفات (حَفِيظٌ عَلِيمٌ) ..

سألها وهو يعرض مؤهلاته وكفاءته.. لم يقل إني جميلٌ ، حسيبٌ نسيب ، إنَّما لفت النظر إلي قدراته الإدارية في الحفظ والعلم ، وهي من مقوِّمات المراحل القادمة في مستقبل البلاد .. ويصدق تفسير رؤيا الملك ، فتمر بأرض مصر ظروف إقتصادية متباينة :-

-يزرعون سبع سنين زراعة طيبة حصادها وفير ..يدأبون عليها وقد نصحهم بأن يتركوا الذرة بعد حصاده في سنبله ..

- ثم تعقبها سنوات عجاف يشح فيها الغيث والنيل ويصابون بجفاف ..

- فيقوم بتجهيز المخازن ليستوعب بها وفرة الإنتاج في السنوات الوفيرة ليقابل بها مواسم الجفاف السبع ، وتظهر قدراته الإدارية والإقتصادية في إنقاذ مصر من أكبر كارثة إقتصادية تمر بها في ذلك الزمان ، وقد ورد ذلك في التاريخ وصدقته الكتابات القديمة ..

-

إذن كان يوسـف واثقاً من نفسـه عندما عرض إمكانياته وقدراته للملك .. وهناك ملحظ آخر هو أن الـ شاب يو سف في هذه المرحلة قد كان يو سفاً جديداً .. صقلته التجارب وجوَهْرتُهُ الإبتلاءات والمحن .. وضـاقت مسـاحة (الأنا) فيه .. ودخل سـاحات (الربانية) فكان عرض قدراته وطلبه الإمارة من باب (وأمَّا بنعمة ربك فحدِّث) .. ثم تختتم الآيات بهذا التعبير (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُـفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [56] ..

ويبدو أننا أمام مفردات التمكين ، والتي بدأ الخطاب بها منذ زمن بعيد ، والبشـارة القرآنية بالتمكين والإجتباء قديمة ، لازمت هذا الصبي المُجتبي منذ الطفولة وعبر مراحل متعددة :

- قرأناها في أول السـورة بعد حادثة الرؤية التي رآها يوسـف عليه السـلام (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ) ..

- وتلوناها يوم إشتراه عزيز مصر وأكرم مثواه (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ) وهو يومئذ يبدأ حياة الرِّق ..

•

• ونتلوها الآن بعد مضي عشرات السنين تتويجاً وتحقيقاً لتلك البشارات والــرؤى (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُــفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَــاء) .. وهو هنا حر طليق ، ذو إرادة وســلطان ، وهو سلطان جاءه يسعي بعد أن صقلته التجارب والمحن ، وبعد أن انتصر علي نفسه داخلياً فهزم فيها كل الرُّعونات والآفات ، ولقد لامست قلبه الشفيف طراوة الوحي وأنسام القرب

(فأيقظت من نفسه ما كان ميِّتاً وأماتت ما كان حيَّاً) كما كان يقول شيخنا أبوحامد الغزالي وهو يصف الصحابة رضوان الله عليهم .. صار وزيراً مسموع الكلمة وجزءاً من التركيبة السياسية والإقتصادية في أرض مصر موئل الحضارات .

وجاء إخوة يوسف :

الأقدار تسوق في جوفها المفاجآت وكأنَّنا نقترب من تحقيق الرؤيا عبر سيناريو مُعْجِز ، وإخراج درامي مليء بالحركة صعوداً وهبوطاً .. لكي نطوي هذه المسافات علي عجل نقرأ الآيات : (وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ [58] وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ [59] فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ [60]

- حرص وتحذير علي أن يأتوه بأخيه بنيامين ، فيردُّون عليه : (قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ [61] وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [62] .. بالغ في إكرامهم (فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [63] قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [64]

- وتمضــي القصــة عبر الآيات لتحكي لنا كيف جاءوا بأخيهم من أبيهم ، وفي إخراج عجيب تخلص الآيات إلي أنَّ يو سف أ ستأثر بأخيه بتهمة أنه سارق .. واحتفظ به بعد أن أ سرَّ إليه (قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ [69] .. وهذه محطة من محطات الفتح والإنفراج التي تبدأ تتوالي حتى تجعلنا نلهث وراء سرعة إيقاعاتها .

يعقوب الأوَّاب :

بلغ النبأ الشيخ المهيب ، المبتلي ، الجليل ، وتراكمت عليه النكبات ، فهاهو (بنيامين) قد أُسِر ، وقد قُتِل قبله يوســف .. فماذا كان رد فعله علي هذه الآلام !! ســنُفاجأ بهذا الســلوك .. ولكنَّهم الربانيون وأهل العبودية والتسليم لله وحسن الظن به رغم المحيط المحبط .. (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [83]

هذه أســرة عجيبة غريبة .. لا تدري بأيهما تعجب .. أ بالشـيخ المبتلي أم بإبنه يوسـف ..؟ وتولّي الشيخ يطوي أحزانه (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ [84] ،

ويتصدَّي له أبناؤه فيعود إلي سكينته وألقه وتحليقه فوق المحنة كما حلَّق إبنه من قبل (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [86]

والقلوب المشــرقة والأنفس الكبيرة التي تســتعلي علي الأحداث والمنغِّصـــات فتلجأ إلي رب الوجود لا ينقطع رجاؤها فيه ، بل تتصرَّف وفق هذا الرجاء ..

انظر إليه يوجِّه أبناءه (يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [87]

يا ســبحان الله !! كلما زادت نار الإبتلاء إزداد الشــيخ ألقاً وتجوهُراً ، وزالت عنه كدوراته ، فهو أشبه بعود الصندل ، كلما زدته إشعالاً زادك رائحةً زكيَّةً طيِّبة .

صـــورة زاهية للزاحفين علي هذا الدرب إلي يوم القيامة .. ونلاحظ أنّ هذه المواقف الإيمانية – مواقف الرضي والتسليم – من سلوك النبي يعقوب وإبنه يوسف سارعت بمجيء النصر ، وقرَّبتْ مهرجان التمكين والذي بدأ الآن ..

المواجهة :

هرع المتآمرون القدامي (إخوة يوســف) إلي مصــر كما وجَّههم أبوهم .. جاءوا هذه المرة خا ضعين منكسرين ويو سف الصدِّيق في أوج سلطانه و صولجانه .. (فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّــنَا وَأَهْلَنَا الضُّــرُّ وَجِئْنَا بِبِضَــاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَــدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ [88] ..

فهتف فيهم : (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُــفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ [89] .. لحظة حاســمة ومواجهة صارمة وسؤال واضح ، فما كان منهم إلا أن قــــالوا : (أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ) .. صمت مطبق ولحظات تُحبس فيها الأنفاس ، وإذا بالرقيق الســجين يهتف بهم في ســلوك أهل الأيمان واليقين وفي نموذج رسالي فذ :

(قَالَ أَنَاْ يُو سُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [90] ..

انظر إلي مفردات خطابه من فوق دُســت الوزارة وحظوة القرب من الملك .. هؤلاء إخوته المتآمرون عليه والذين تداولوا اقتراح تصفيته يوماً ما ، فإذا به يردُّ الأمر كله إلي الله (قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا) ، وهو تعليق فيه سكينه ووقار في ساعات نصر .. تعليق خالٍ من الإنفعالات أو ردود الأفعال التي تجتاح الإنســان في مثل هذه المواجهات .. ثم يقرِّر (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْــبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِــيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [90]

العفو :

ما كان من المتآمرين إلا أن يُقِرُّوا (قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ [91] ، فيسلك سـلوك النبلاء والشـاكرين لله ، وأهل العبودية الرحماء ، الكبار في اهتماماتهم ، فينسـي مواجعه وجراحاته ويتطلع إلي أن يعكس النموذج الرباني (قال لا تثريبَ عليكم اليوم يغفرا اللهُ لكم وهو أرحمُ الرَّاحمين) ..

لو فكَّكت هذه العبارات لوجدتها تنطوي علي استعدادات فطرية عجيبة عند يوسف عليه السلام فهو :

- يعفو عنهم فيما بدر منهم بخصوصه ، ويتجه نحوهم في التعبير الحاني (قال لا تثريبَ عليكم اليوم).. لا حساب ، بل لا عتاب أو مساءلة بيني وبينكم .

- ثم ينبسط سلوكه الحاني واهتمامه فيطوي الدنيا ، ويتشوَّق إلي غفران الله تعالي لهم في الآخرة (يغفرا اللهُ لكم) ، وهو نموذج يعكس أريحيته وسـمو نفسـه علي الصـغائر ، وكرمه الفياض ليشـمل عفوه فيما بينه و بينهم ، وكذلك غفران الله لهم لتكون صـــحيفتهم طاهرة نظيفة من حقوقه عليهم وحقوق الله عليهم .

وهنا نلاحظ كيف حلَّق يوســف فوق مناخ (الإنتصــار للنفس) والإنتفاش ، وارتبط بالله ، وهو نفس التحليق الذي مارسه أيام السجن والإبتلاء .

ولقد ثمَّن سيد الأولين والآخرين سلوك يوسف مع إخوته يوم خاطب أهل مكة يوم الفتح الأكبر : (أقول لكم ما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) .

إنها الأنفس الزكية والأرواح القوية ، الرا سخة وقد كساها الله حُلَل اليقين ، تعلو علي الإنفعالات الهابطة الرخيصة فتلجم جماح الإنتفاش والزهو .

مهرجان الحفاوة

القصة القرآنية تو شك أن تلملم أطرافها .. والضوء بدأ يشِعُّ خلف الظلام .. والأحداث تتلاحق .. والآيات القرآنية تحكي البشارات والخاتمة السعيدة ... فلنقبض أنفا سنا ولنقرأ : (فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ [96] قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ [97] قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [98]

صدق الله العظيم

تبدَّل حال الشيخ .. بعد أن أرهقه الحزن وابيضَّتْ عيناه وأصبح لا يبصر كافأه الحق بردّ بصره إليه ، واعتراف بنيه في أدب جم ... شعروا بخطئهم وطلبوا من الشيخ المهيب أن يستغفر لهم الله .. هذه كانت الهدية الأولى للشيخ ، بأن عاد الرشد إلى أبناءِه ، وكانت مكافأة له على صبره وجلده بل حسن ظنه بالله من وراء السنين وتَقَادُم العهد (اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ [87]

هذه محطة من محطات مدارج الصفاء في النفس البشرية عندما تسمو ... محطة حُسن الظن بالله والرجاء فيه رغم المناخ المُحبِط ، والمقدمات السلبية التي تنتهي – حسب منطق العقل – إلى نتائج سلبية .. إنَّه الوجدان الدَّافق ، والإيمان في قمَّته ، والدرس الذي يجب أن نعيه ونحن نضرب في شعاب الحياة نحمل همومنا الصغار ، نتكسر على جنباتها ويلفنا اليأس .. هذا شعار لحركة الحضارة الإنسانية .. أن تمد طرفها إلى المستقبل زاحفة غير يائسة(وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ).

رحل الشيخ المُبصر والفرح يلُفُّهُ .. ورحلت معه الأسرة الكريمة وقد أنابت إلى ربها ، وصحَّحتْ مسارها .. ودخلوا مصر يُيَمِّمون صوب فتاهم المتمكِّن ، والذي أصبح جزءاً من المنظومة الحاكمة في (بلاط فرعون) مصر .. يقصُّ علينا القرآن هذا المشهد في كلمات قوية أخَّاذة ذات دلالات .. فإلى هذه الآيات والى دلالاتها :

قال تعالى : (فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُو سُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِ صْرَ إِن َشاء اللّهُ آمِنِينَ [99] وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُــجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَــاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [100] رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [101]

هذا الدخول كان طليعة لدخول العبرانيين أرض مصــر ... والآيات تبدأ في ترتيب يعكس سـلوك رجل دولة .. اســتقبل أبواه .. والتعبير (آوى) تعبير فيه حفاوة ، وهو تعبير حاني .. لم يقل القران (اســتقبل) ، إنما آوى ، من الإيواء .. ثم أتخذ قراره الحاني أمام الوفد كله (وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْــرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ [99] ، واستصحب المشيئة لأنه رباني وحاكم (ادخلوا مصر ... وانتم آمنون) ..

والأمان هو أهم عوامل الا ستقرار . ثم مضى في الحفاوة بأبويه بِرّاً (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) .. أجلسـهما على العرش الذي يجلس فيه ، ورحَّب بإخوته جميعاً ... نفس الإخوة الذين تآمروا عليه رحَّب بهم من فوق عرشه .. عفا ، ونسى ، وطوي صفحاتهم المظلمة معه لأنه صيغ صياغة جديدة .. أصـبح ربانيا ، يترفع عن الصـغائر و(الكروت الخاصـة) وردود الأفعال .. سـنوات المحنة والابتلاء صقلته حتى تجوْهر ، وأصبح يوسف شخصية جديدة يمكن أن نطلق عليها (يوسف 2) .

بادله إخوته تكريماً بتكريم .. فخرُّوا له سُـجَّدا .. على عادة أهل ذلك الزمان في السـلوك مع ملوكهم ورؤسائهم .. تناسوا أنهم إخوانه ، وأنهم اكبر منه سناً .. إحسانه إليهم جعلهم يرتفعون فوق هذا الفهم الضيق (عامل السن) .. وتجاوزوا أيضاً حاجز المعاصرة .. وقديماً قيل (المعاصرة حجاب) .

لقد حيَّرهم من قبل حينما تواجهوا ، وكا شفهم سائلاً : (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ [89] .. فأجابوا حين أحسُّـوا بان الذي يملك أن يقول هذه الكلمات القوية في مواجهتهم لابد أن يكون فتاهم (قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ) ؟ ..

حينئذ كان رد فعله باهراً أدهشـــهم ، وعلموا أنهم أمام نموذج بشـــري جديد .. بدءوا يحســـون بربانيته وتفوقه ، فماذا قال ؟ (قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا) ..

جملة خبرية وإجابة حسب السؤال .. لا تشعر فيها أي نَفَسٍ من أنفاس الانتقام والاستعلاء .. وقد ضمَّخها بشهود مِنَّة الله عليهم (مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا) ..

أين تاريخهم معه ؟ وأين مسـلسـل مؤامراتهم ؟ .. لقد تلاشـي في سـاحات الإيمان .. ولم يتسـع صـدره لمثل هذه الصـغائر فاسـتعلى عليها .. ثم يختم ذلك بقوله: (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْـبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [90] .. يتَّقى ربَّه .. ويصبر على أشواك الطريق

لقد شـدَّهم بإجابته الهادئة ، ولذلك اعترفوا له بالأفضـلية والأسـتاذية .. فما ملكوا حين دخلوا بلاطه إلا أنْ (خرُّوا له سُجَّداً)

يوسف بين السجود والقنوت :-

نحن أمام مشــهد مُعبِّر ولوحة فريدة : أبواه على العرش وإخوته سـاجدين أمامه .. في هذه اللحظة يتجلي يو سف الرباني بكلماته المتوا ضعة المتطامنة وهو في قمة الأُبَّهة ومظاهر السلطان .. والظاهرة الربانية تلفّهُ .. فلنتابع كلماته وأحاسـيســه وهو يرى هذا الكم من الاحترام والاعتراف من إخوته المتآمرين عليه من قبل ..

سنلمس إلى أي مدى أستعلى على الأحاسيس الصغيرة والسلوك الصغير ، فأصبح كبيراً ، صاحب هم رسـالي ، وارتبط بربه ... يتجاوز القصـر والوزارة والمظاهر التي حوله .. يحلِّق من مناخ النعمة إلى آفاق المنعم الأكبر .. يحلِّق ساعات انتصاره كما حلَّق من قبل في السجن فوق مآسيه ومحنته .

إنهم نموذج الربانيين أينما كانوا .. في ظلام السـجن أوعلي كرسـي الحكم .. نسـمع القران يقص علينا

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [100] ... يخاطب والده الذي يجلس جواره خطاباً مؤدَّباً .. خطاب أهل المعرفة الذين يخترقون عالم الأسباب إلى ربِّ الأسباب .. لا يحجبهم عن ربِّهم زخم ولا مظاهر .. وإنما هم دائمو الحضور مع الله :

1. يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

الذي يحدث أمامي هو تحقيق لرؤيا قديمة .. حقَّقها الله .. وأنظر إلى هذه الإضـــافة الحانية (جعلها ربِّي حقا) وليس الرب مطلقاً .. ثم يمضي في رصد الأحداث حتى هذه اللحظة ..

2. وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ

الاعتراف بفضـــل الله عليه متواصـــل .. أحســـن بي .. أخرجني .. ولاحظ أدبه الجم .. لم يقل (أدخلني السجن) ، وإنما قال (أخرجني من السجن) ..

ونلاحظ كذلك أريحيته وحســه العالي وهو يؤرخ للأحداث ، فانه قد مرّ على حادث رَميِه داخل الجُبِّ - والذي قام به إخوانه - مرّ عليه مرور الكرام وليس مرور اللئام فتجاوزه .. شــطبه من مسلسل الأحداث لئلاَّ يجرح مشاعر إخوانه .. لقد كان صدره صافياً خالياً من أي تداعيات نتجت عن حادثة الجُبِّ .. هي حادثة قد جَبَّها صدره الرحب فلم يَعُد يذكرها .. استعلى عليها .

3. وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي

قدومهم من البادية القاســية إلى أرض الحضــارة مصــر ، ومن بعد أن لعب الشــيطان بإخوته .. ولاحظ إشراك نفسه (نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) ، ووصفهم بأنهم إخوته رغم تآمرهم عليه .

4. إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

شــهد بان الألطاف الإلهية أحاطت به أيام المِحنة وأيام المِنحة ، وأنَّ الله كان لطيفاً في حالات الإبتلاء .. وأنَّ لطفه تعالي به تجلَّي في مظاهر شتَّي :-

أ- رماه إخوانه في البئر .. ويقدِّر الله أن تكون البئر مهجورة ليست بها ماء ليغرق فيه .. ثم يستمر اللطف فتأتي القافلة وتعمد إلي هذا البئر لتجده فتأخذه .. فينجو في هذه المرحلة .

ب- وفي أرض مصـــر تمكر القافلة به فتبيعه بثمن بخس ، دراهم معدودة .. فإذا باللطف الإلهي يحيط به إحاطة مدهشة .. السيِّد الذي اشتراه يعطي تعليماته لسيدة البيت (أكرمي مثواه) .. هذا ليس سلوك سيِّد مع رقيق ، لكنَّه اللُّطف الإلهي .

ج- إمراة العزيز وفتنة الجمال يتجاوزهما ، ويتولاه اللطف الإلهي (لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) .. يري برهان ربه فيفيء إلي التعفُّف عن الحرام ويحفظه ربه (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ)

د- السـجن وأيام السـجن تنقلب إلي خلوة .. والي سـاحات دعوة ، فيكون محطة من محطات السير إلي الله .. (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

.

ثم تختتم الآيات بان تحكي كلمات جرت علي لسان الفتي السيِّد الوزير ، صاحب الحظوة عند الحاكم .. هي مفردات كلها عبوديـــة وإخبات .. هي قنوت في مقابلة سجود الحاضرين له .. وهي تبهرك حين تصدر من هذا الفتي في مكانته وأبهته ، ولكن يا أخي هي الظاهرة الربانية التي تجلَّت فيه .. صقلته المِحَنْ والسنين حتى تجوْهر وتألَّق ، ليكون نموذجاً للحاكم المسلم والمسئول المسلم .. فماذا قال :

1) (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ) .. يذكر مِنَّة الله عليه بأن آتاه بعض الملك – ملك مصـــر – وجمع له الملك مع تأويل الأحاديث في اعتراف حاني .. ثم يهتف مقدساً ربه .

2) (فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) .. له العزة والجبروت .. ينسي الفتي جبروته ويأرز إلي جبروت الله تعالي ..

3) (أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْـلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّـالِحِينَ) .. إعتراف وتذلُّل في مفردات متطامنة غارقة في الأدب مع الله .. يقولها وهو علي كر سي الوزارة .. هذه مفردات محاريب ومسـاجد لا مفردات قصـور ومكاتب وزراء ، ولكن يبدو أنَّ الفتي قد قلب القصـر إلي محراب ومسجد ، فتوحَّدت الرؤيا وتمَّ الحضور مع الله في كل حال .. ثم يطرح الفتي العبراني مطالبه :-

4) (توفَّني مسلماً) .. يخاف ألا يغادر الدنيا مسلماً فيسأل الله أن يختم له بالحسنى .. ثم يلملم أطراف مناجاته بهذا النداء :

5) (وألحقني بالصالحين) .. والصالحون في التسلسل القرآني يقعون في الدرجة الرابعة (مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

تطلعات هذا الرباني المؤدَّب أن يلحق بكشـف الصـالحين ، أو (مُلحقاً) بهم .. أنظر إلي هذا التواضُع والأدب الجم .. إنهم الربانيون .

المفردات ما بين السجن والقصر

في محاولة لإضــاءة خلفية نســتعرض مفردات هذا الرباني الســلطان وهو في قمة نصــره مقارنة بمفرداته في أيام الســجن والمحنة لندرك انه ما بَرِح وما أنفكَّ عن مقام المؤمن الموحِّد المرتبط بربه في كل الأحوال ، وأنه تربَّع على بساط العبودية داخل السجن وفى داخل القصر .

1. فمن داخل السجن نجد قوله :

(إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [37] وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ) .. وكذلك عبارته :

(يَا صَــاحِبَيِ السِّــجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [39] مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْــمَاء سَــمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُــلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ [40]

ومناخ السجن و الرق يستلزم في الحالات العادية الإستكانة و اللغة المنهزمة ، لكن الفتى العبراني الرباني كان عامر الباطن ، قوى الإيمان ، ولذلك جاءت عباراته قويه ، متمردة ، شـــامخة ، لا تعكس المناخ الظاهر ولكنها تعكس دواخله الثائرة .. هذه الدواخل تصـــعد به فوق المِحَن والإبتلاءات والجو الخانق المحيط به ، فيحتقر الصغائر والاهتمامات الصغيرة ، ويتربَّع على بساط العبودية .

في ساحات القصر :

مناخ النصر والسلطة هو مناخ نشوة وزهو وقوة ، ولكننا نجد عباراته ليِّنة الملمس والمعني ، كأنه يعالج بها رعونات الإنتفاش والزهو فيكســـر حِدَّتها كما عالج بمفرداته القوية الصـــارمة منحدرات الإنهزام والخضوع في السجن .. فانظر إلي تعابيره في نشوة النصر :

(آتيتني ... علَّمتني ... فاطر الســموات ... توفَّني مســلماً وألحقني بالصـــالحين) .. والرجل في كِلا الحالَيْن سائر إلي ربِّه .. سالك طريق أهل الصبر علي المحنة وأهل الشكر علي المنحة ، ففي حال القيد والأغلال يستعمل المفردات القوية لكي تعينه علي التحليق فوق المآسي

والإســتعلا علي الواقع المهين فتربطه برب الوجود متوكِّلاً موحِّداً ، وفي حال النصـــر والقصـــر والسلطان ا ستعمل المفردات الحانية المتوا ضعة الذليلة أمام ربه لكي تعينه أيضاً علي التحليق فوق آفات الزهو وحظ النفس والإستعلاء علي رعونات البطر والظلم والإنتفاش .

إنهم الربانيون علي الدوام وفي كل الأحوال ، أكانوا في ظلام السجون والمعتقلات أو في صولجان السلطة والسيا سة .. وحول هذه المعاني يجب أن يدندن ويحوم السائرون إلي الله تعالي والزاحفون علي هذا الدرب .

مؤشرات :

ونحن نلملم أطراف هذه الكراسة نلخِّص العِبَر والمضامين والمحطات خلال المؤشِّرات التالية

أولاً : علينا أن نحتسب لله كلما يصيبنا من أذي وعنت ، ونعتبر أنَّ ذلك من لطف الله بنا ، وأنَّ الحق يسوقنا إلي حما – من طرف خفي – من خلال بوابات الإبتلاء التي هي أشبه بغرف العمليات لإزالة الأورام والشحوم .

ثانياً : ألاَّ ننتظر لطرح الدعوة المناخ والمزاج الذي يروق لنا ، فأيِّ قطعة من الأرض هي ساحة للدعوة إلي الله وان كانت (سجناً) ، وأيِّ مجموعة من البشر هم هدف لطرح الإسلام وان كانوا من عتاة المجرمين ونزلاء الزنازين ، ولذلك نتعلّم كيف نوظِّف ظروفنا القاسية لخدمة الهدف السامي ، ونقلب الجو المُحبِط إلي وقود لشحن العزائم فنحلِّق فوق شماعة الإمكانيات إلي آفاق الرجاء والمصابرة كما حلِّق السجين يوسف عليه السلام ، ونتأسَّي به في تكوين (كتائب يوسفيه) تستعلي علي الواقع الكئيب فتنقلب المِحنْ إلي مِنَحْ .

ثالثاً : أنْ نفرد ربَّنا ذي الجلال بالعبودية والتوحيد غير مشركين به أي نوع من أنواع الشرك ، غليظاً واضحاً أو لطيفاً مخفياً من مال أو منصب أو جاه .

رابعاً : نتعلَّم ألا يخيب رجاؤنا في الله تعالي ، وفي نصـــره المحتَّم مهما أمتد الظلام وكان المناخ محبطاً .. ومهما بعدت الشُقَّة وطال السفر .

خامساً :يجب أن نتعلَّم من القصة كيف يكون مسلكنا بعد النصر والتمكين ، وكيف نتعامل مع الذين كادوا للدعوة وتآمروا عليها ، ونتذكَّر كيف سلك النبي يوسف مع إخوانه المتآمرين ، فقد عفا عنهم ، واستغفر لهم الله ، وشكر ربه بلساني المقال والحال .

ســادســاً :مع مهرجان النصـــر ومعطيات التمكين يجب أن نزداد خوفاً من الله تعالي كلما ازدِدنا تمكيناً ، وألاَّ نأمن مكر الله تعالي ، ويكفينا في ذلك مناجاة يوســف وقد إنقادت إليه الدنيا وجمع الله شمله : (أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [101] ،

ولنا في سيِّد الأولين والآخرين أسوة حسنة ، فقد نزلت عليه سورة النصر وهو يدخل مكة فاتحاً منتصراً ، فإذا بالحق من وراء سمواته يخاطبه : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبِّح بحمد ربِّك وأستغفره إنه كان تواباً) ..

في يوم النصـــر والظفر يكون البرنامج كله تســبيح وإســتغفار .. تســبيح بحمد الله الذي أنعم ، واستغفار من ذنوب والإنتفاش وحظ النفس والشرك الخفي في إسناد هذا النصر إلي الذات أو النفس إسناداً أصيلاً ، ولذلك روي أهل السِيَرْ أنَّ رسول الله (ص) دخل مكة علي ناقته (القصواء) خافضاً رأسه تخشُّعاً لله حتى لتكاد جبهته الشريفة أن تَمَس ظهر ناقته ، والقرآن يتنزَّل عليه ، والسكينة تتغشَّاه

سابعاً : نبَّه القرآن إلي ما يعتري الدعاة المنتصـــرين ســاعات النصـــر من آفات حظ النفس والزهو ، وما يعقب ذلك النصر من إستراحة للمحاربين وإرتكاز يكون مصدراً للنسيان والوهن

الذي يدبُّ في أوصــال هؤلاء المحاربين ، ولقد لوحظ ذلك في مخاطبته لأهل بدر بعد الإنتصــار الساحق الذي حقَّقوه في ميدان القتال وعادوا إلي المدينة ،

ويبدوا أنَ اسـتراحتهم في المدينة تخلَّلها بعض دبيب من الوهن فنبَّه القرآن إلي ذلك في إيقاع قوي وجرس مزعج يعجُّ بالعتاب والتذكير لطلائع المؤمنين ، حرصـــاً منه علي حماية هذه الطليعة من أمراض التمكين والسـلطة السـياسـية : (وأذكروا إذ أنتم قليل مسـتضـعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون)..

ويبدوا أن التذكُّر في مناخ الإنتصار أمر صعب للغاية ، ويكفي لصعوبة أي أمر أن يحتاج القرآن أن يذكِّر فيه الآخرين .. ويذكِّر من ؟ .. أهل بدر ، طلائع الدعوة وصـفوة الصـحابة ، فما بالك بنا نحن من وراء السنين ؟؟

وبعد ..

تلك سـياحة في بعض جوانب من سـورة يوسـف ، وهي محاولات في فهم كتاب الله علي ضـوء الواقع .. هذا الكتاب الخاتم والذي هو آخر خطاب مـ سطور للبـ شرية ، وهو بذلك يحوي المـا ضي والحاضر والمستقبل ..

هذا الكتاب الذي نعته فيلسوف باكستان المسلم (محمد إقبال) فقال :

(هذا الكتاب هو رأس مال أهل الحق ، في ضـــميره الحياة كلها ، وفيه نهاية كل بداية ، وكان عليَّ فاتح خير) ..

والسياحة في كتاب الله أمر جدٌّ خطير ومهيب ولكنها وقفات ! ..

فالله أســـأل أن يرزقنا فهماً عالياً في كتابه ، وأن يتجاوز عن خطئنا في محاولات فهمنا هذه ، وأن يجبر كسرنا فيه ، ويتمِّم نورنا فإنَّ الأمور تجري بالمقادير ..

ونسألك اللهم كمال الأدب مع معيتك في كل أحوالنا ، ونسألك تعالي أن تشمل مسيرة مشروعنا

الإسلامي بالتوفيق والبركات .. إنك سميع مجيب الدعاء رب العالمين .

الخرطوم – مدينة الفردوس

أغسطس – 1999

المحتويات